

الصراع على الرواية بوصفه صراعاً على الهوية : دراسة في إنتاج المعنى في الخطابين الفلسطيني والإسرائيلي

د/ رياض عزات شريم

(جامعة الاستقلال، فلسطين)

تاريخ النشر: نُشر إلكترونياً بتاريخ ١ أكتوبر ٢٠٢٦ م

الملخص :

يتناول هذا البحث الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي من منظور علم اجتماع المعرفة وتحليل الخطاب السياسي، انطلاقاً من فرضية مفادها أن هذا الصراع لا يقتصر على الأرض والسيادة والحدود والقوة المادية، وإنما يتضمن صراعاً موازياً على الرواية والذاكرة والهوية والحق في تعريف الواقع. فالمفاهيم المركزية المتداولة في الخطابين الفلسطيني والإسرائيلي، مثل النكبة/الاستقلال، والعودة، والأرض، والوطن، والسكان الأصليين، والأمن، والصحية، لا تعمل باعتبارها أوصافاً محايدة للواقع، بل بوصفها أدوات لإنتاج المعنى وتحديد موقع الذات والآخر وتأسيس الشرعية السياسية والأخلاقية.

يعتمد البحث مقارنة وصفية تحليلية مقارنة، مستفيداً من نظرية البناء الاجتماعي للواقع عند بيتر برغر وتوماس لوكان، ومفهوم الذاكرة الجمعية عند موريس هالفاكس، والعلاقة بين المعرفة والسلطة لدى ميشيل فوكو، والسلطة الرمزية عند بيير بورديو، ومفهوم "الحق في الرواية" عند إدوارد سعيد، وإثوس الصراع لدى دانيال بار-طال. ويحلل البحث أربعة حقول دلالية أساسية: النكبة/الاستقلال؛ العودة؛ الأرض والوطن والأصالة؛ الأمن والصحية.

وتخلص الدراسة إلى أن الرواية ليست مجرد انعكاس للصراع، بل إحدى آليات إنتاجه وإعادة إنتاجه؛ إذ تؤدي التسمية وانتقاء نقطة البداية التاريخية وتنظيم الذاكرة وتعريف الصحة والتهديد دوراً مركزياً في بناء الهوية الجماعية. كما تبين الدراسة أن المقارنة بين الروايتين لا تستلزم افتراض تكافؤ شروط إنتاجهما، نظراً إلى عدم التوازن في القوة السياسية والمؤسسية والقدرة على فرض التسميات والخرائط والذاكرة الرسمية. وتخلص إلى أن المستوى الأعمق

للصراع على الرواية يتمثل في الصراع على "سلطة تعريف الواقع"؛ أي على من يمتلك القدرة على جعل تفسيره للتاريخ والمكان والهوية والحق هو الإطار الأكثر شرعية وقبولاً.

الكلمات المفتاحية:

الرواية؛ الهوية؛ علم اجتماع المعرفة؛ الذاكرة الجمعية؛ الخطاب السياسي؛ النكبة؛ فلسطين؛ إسرائيل.

Abstract:

This study examines the Palestinian–Israeli conflict through the sociology of knowledge and political discourse analysis. It proceeds from the assumption that the conflict is not limited to land, sovereignty, borders, and material power; it also encompasses a struggle over narrative, collective memory, identity, and the authority to define reality. Central concepts such as Nakba/Independence, return, land, homeland, indigeneity, security, and victimhood do not function merely as neutral descriptions. Rather, they operate as mechanisms through which meaning, collective identity, political legitimacy, and perceptions of self and other are produced.

The study adopts a descriptive, analytical, and comparative approach, drawing on Peter Berger and Thomas Luckmann's social construction of reality, Maurice Halbwachs's collective memory, Michel Foucault's relationship between knowledge and power, Pierre Bourdieu's symbolic power, Edward Said's "permission to narrate," and Daniel Bar-Tal's concept of ethos of conflict. It focuses on four major semantic fields: Nakba/Independence; return; land, homeland and indigeneity; and security and victimhood.

The study concludes that narrative is not merely a reflection of conflict but one of the mechanisms through which conflict is continuously produced and reproduced. Naming, selecting a historical starting point, organizing collective memory, and defining victimhood and threat all contribute to the construction of collective identities. The

comparison between Palestinian and Israeli discourses does not imply equivalence in their institutional or political power. Ultimately, the struggle over narrative can be understood as a struggle over the “authority to define reality”: who has the ability to transform a particular interpretation of history, place, identity, and rights into the dominant and legitimate framework.

Keywords:

Narrative; Identity; Sociology of Knowledge; Collective Memory; Political Discourse; Nakba; Palestine; Israel.

مجلة الاتحاد العربي للنشر العلمي

١. المقدمة

لا تبدأ الصراعات السياسية الكبرى عند حدود الأرض وحدها، ولا تنتهي بتغيير الخرائط أو توقيع الاتفاقات؛ فإلى جانب الصراع على الموارد والسيادة والقوة يوجد صراع آخر على اللغة والذاكرة والرموز، وعلى الحق في تعريف

الحدث وتسمية المكان وتحديد من هو صاحب الحق ومن هو الضحية ومن يشكل تهديداً لمن. وفي هذا المستوى يتحول الصراع السياسي إلى صراع على إنتاج المعنى.

ويقدم الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي نموذجاً بالغ الوضوح لهذه العلاقة بين القوة والرواية. فالعام الذي تحتفظ به الذاكرة الفلسطينية تحت اسم "النكبة" يشكل في السردية القومية الإسرائيلية عام "الاستقلال" وإقامة الدولة. والمكان الذي يدخل الذاكرة الفلسطينية باعتباره قرية مهجرة أو وطناً مفقوداً قد يدخل ذاكرة إسرائيلية أخرى من خلال اسم عبري ورواية تاريخية مختلفة. كما أن "العودة" التي تظهر فلسطينياً باعتبارها تصحيحاً لعملية الاقتلاع يمكن أن تظهر في الخطاب الإسرائيلي السائد باعتبارها تهديداً ديموغرافياً لطبيعة الدولة، بينما يتحول "الأمن" في خطاب إلى ضرورة لحماية المجتمع، وفي خطاب آخر إلى إطار يضفي الشرعية على السيطرة والقيود المفروضة على السكان. لا يتعلق الأمر، إذن، باستخدام كلمات مختلفة فقط. فالكلمات تحدد نقطة النظر إلى الواقع؛ وعندما يسمى حدث ما "نكبة" أو "استقلالاً"، فإن الاختيار ينظم الحدث داخل سلسلة مختلفة من الأسباب والنتائج والقيم. كما أن تحديد تاريخ بعينه بوصفه "بداية" الصراع يحدد بدرجة كبيرة شبكة المسؤوليات التي ستنتج عن الرواية.

ومن هنا تبرز أهمية علم اجتماع المعرفة؛ إذ لا يتعامل هذا الحقل مع المعرفة بوصفها نتاجاً عقلياً منفصلاً عن المجتمع، بل يبحث في الشروط الاجتماعية التي تتشكل من خلالها المعاني وتكتسب شرعيتها. وقد أكد برغر ولوكمان أن الواقع الاجتماعي يجري بناؤه من خلال عمليات التفاعل والمأسسة والتنشئة وإضفاء الشرعية، حتى تتحول منتجات بشرية تاريخية إلى واقع يبدو للأفراد طبيعياً وموضوعياً (Berger & Luckmann, 1966).

وعليه، فإن الفلسطيني أو الإسرائيلي لا يرث الأحداث التاريخية فحسب، بل يرث كذلك الإطار الذي ينبغي أن تُفهم الأحداث داخله. فالأسرة والمدرسة والجامعة والإعلام والمتاحف والأرشيف والخرائط والاحتفالات الوطنية والأدب والخطاب السياسي تساهم جميعها في تعليم الفرد ماذا يتذكر، وما الاسم الذي يعطيه للحدث، وما موقع جماعته فيه. وتتداخل هذه العملية مع مفهوم الذاكرة الجمعية لدى هالبفاكس؛ فالذاكرة ليست مجرد مخزون فردي مستقل، وإنما تتشكل داخل أطر اجتماعية تحدد الطريقة التي يعاد بها بناء الماضي من منظور الحاضر (Halbwachs, 1992). ولذلك لا تحتفظ الجماعات بالماضي كما وقع بصورة كاملة ومحيدة، بل تنتقي منه وتعيد ترتيبه وتربطه بالحاجات المعاصرة للهوية.

في الحالة الفلسطينية، تمثل النكبة أبرز مثال على تحول الحدث إلى ذاكرة جمعية مستمرة. فقد غادرت الواقعة حدود عام ١٩٤٨ لتصبح إطاراً لفهم اللجوء والشتات وفقدان المكان والمطالبة بالعودة. وأصبحت أسماء القرى والبيوت ووثائق الملكية والمفاتيح والصور والروايات العائلية أدوات لربط الأجيال الجديدة بأمكنة لم يعيش بعضها فيها مباشرة.

ويشير مرقطن (٢٠٢٠) إلى أن أسماء المدن والقرى الفلسطينية تمثل أحد أهم مستودعات الذاكرة الثقافية الفلسطينية، وأن الصراع على الاسم يرتبط بالصراع على هوية المكان واستمراريته.

وفي المقابل، أنتجت الحركة الصهيونية ثم الدولة الإسرائيلية ذاكرة قومية تربط بين التاريخ اليهودي، والشتات، والاضطهاد الأوروبي، والمحركة، والهجرة الصهيونية، والحرب، وإقامة الدولة والسيادة. وفي هذه المنظومة يصبح عام ١٩٤٨ لحظة ولادة سياسية، بينما تتراجع خبرة المجتمع الفلسطيني أو يعاد تفسيرها وفق البناء السردي الإسرائيلي.

تكمن المشكلة هنا في أن الصراع لا يقع بين "حقيقتين" مغلفتين بالضرورة، وإنما بين عمليتين اجتماعيتين لإنتاج التاريخ والمعنى. ولا يعني ذلك تبني نسبية معرفية ترى أن جميع الادعاءات التاريخية متساوية؛ فالوقائع المتعلقة بالتهجير والحروب والاحتلال والاستيطان والضحايا يمكن دراستها والتحقق منها وفق مناهج البحث التاريخي والقانوني. لكن سؤال هذه الدراسة مختلف: كيف تتحول الوقائع والتفسيرات إلى ذاكرة وهوية وشرعية سياسية؟

كما لا تعني المقارنة بين الخطابين افتراض التكافؤ بينهما. فإسرائيل دولة تمتلك مؤسسات رسمية قادرة على إنتاج المناهج والخرائط والأرشيف والسياسة الدبلوماسية، بينما تعرض الفلسطينيون تاريخياً للتهجير والاحتلال والتجزئة وغياب الدولة ذات السيادة. ومن هنا فإن دراسة الرواية لا يمكن فصلها عن دراسة القوة.

وتتطلب هذه الدراسة، بناءً على ذلك، من أطروحة مركزية مفادها أن الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي هو، في أحد مستوياته العميقة، صراع على سلطة تعريف الواقع؛ أي على القدرة على تحديد الاسم المشروع للحدث، والتاريخ الذي ينبغي أن تبدأ منه الحكاية، وهوية صاحب الحق، ومن هو الضحية، وما الذي يمثل أمناً أو تهديداً.

٢. مشكلة الدراسة وأسئلتها

ركزت غالبية الأدبيات المتعلقة بالصراع الفلسطيني-الإسرائيلي على جذوره التاريخية والتحويلات السياسية والقانون الدولي والأمن والمفاوضات، بينما ظل تحليل "إنتاج المعنى" أقل حضوراً، ولا سيما في الأدبيات العربية. ولا تكمن المشكلة في أن الفلسطيني والإسرائيلي يقدمان تفسيرين مختلفين للوقائع فقط، بل في أن كليهما قد يبدأ من تعريف مختلف للمشكلة نفسها. فالنكبة في خطاب هي الاستقلال في خطاب آخر، والعودة في خطاب هي خطر ديموغرافي في الآخر، والأمن في خطاب قد يمثل سيطرة في خطاب مقابل.

وعليه تتمثل مشكلة الدراسة في السؤال الرئيس الآتي: كيف يتحول الصراع على الرواية في الخطابين الفلسطيني والإسرائيلي إلى صراع على إنتاج الهوية والذاكرة والشرعية؟

ويتفرع عنه عدد من الأسئلة: كيف يفسر علم اجتماع المعرفة ودراسات الذاكرة العلاقة بين الرواية والهوية؟ كيف تنتج ثنائية النكبة/الاستقلال معنيين مختلفين للحدث التاريخي نفسه؟ كيف تتغير دلالات العودة والأرض والوطن والأصالة والأمن والضحية بين الخطابين؟ كيف يسهم اختيار نقطة البداية التاريخية والتسمية في توزيع المسؤولية والشرعية؟ وما أثر عدم التكافؤ في القوة والمؤسسات في القدرة على تثبيت الرواية وتعميمها؟

وتفترض الدراسة أن الرواية ليست نتيجة نهائية للهوية؛ بل إحدى العمليات التي تُنتج الهوية وتعيد تشكيلها، وأن الصراع على المفاهيم يمثل صراعاً على الشرعية السياسية والأخلاقية.

٣. أهداف الدراسة وأهميتها

تهدف الدراسة إلى تقديم قراءة سوسيولوجية للصراع الفلسطيني-الإسرائيلي بوصفه صراعاً على المعنى، وتحليل العلاقة بين الرواية والذاكرة والهوية، والكشف عن الوظيفة السياسية للتسمية، وفهم الطريقة التي تتحول بها مفاهيم مثل النكبة والعودة والأمن والضحية من مفردات وصفية إلى مكونات لبناء الهوية والشرعية.

وتتبع أهميتها النظرية من الجمع بين علم اجتماع المعرفة ودراسات الذاكرة وتحليل الخطاب في قراءة الحالة الفلسطينية-الإسرائيلية. أما عملياً، فإنها تساعد في تفسير لماذا تبدو بعض قضايا الصراع - كحق العودة والاعتراف بالنكبة والقدس وهوية الدولة - أكثر مقاومة للحلول التقنية من قضايا أخرى؛ لأنها ترتبط بالقصص التي تعرف الجماعات ذاتها من خلالها، لا بالمصالح المادية وحدها.

وما يميز الدراسة أنها لا تبحث عن "الرواية الصحيحة" بوصفها هدفاً مباشراً، ولا تضع الروايتين في مستوى واحد من حيث القوة والمسؤولية، بل تدرس كيف تُنتج الروايات، وما الوظائف التي تؤديها، ومن يمتلك المؤسسات الأكثر قدرة على تثبيتها.

٤. منهج الدراسة

تعتمد الدراسة المنهج الوصفي-التحليلي المقارن، مع الاستفادة من تحليل الخطاب النقدي، الذي يربط استخدام اللغة بعلاقات السلطة والسياقات الاجتماعية والسياسية (Fairclough, 1995; van Dijk, 1993).

وتقوم الدراسة على تحليل أربعة حقول دلالية تمثل المفاهيم الأكثر كثافة في الصراع: النكبة/الاستقلال؛ العودة؛ الأرض والوطن والأصالة؛ الأمن والضحية. ويجري تحليل كل حقول وفق أربعة مؤشرات: التسمية، والزمن المرجعي، وموقع الفاعل والضحية، والوظيفة الهوياتية والسياسية.

ولا تستخدم الدراسة تعبير "الخطاب الفلسطيني" و"الخطاب الإسرائيلي" بمعنى وجود موقف واحد متجانس داخل كل مجتمع؛ إذ توجد اختلافات فلسطينية وإسرائيلية سياسية وأيديولوجية واسعة. والمقصود هو الأنماط السردية الأكثر حضوراً داخل المجال القومي العام، مع الاعتراف بوجود روايات نقدية ومضادة.

وتعتمد المادة التحليلية على قراءة نوعية انتقائية لمصادر تمثل مستويات مختلفة من إنتاج الرواية: أدبيات نظرية حول الذاكرة والمعرفة والخطاب، ودراسات تاريخية فلسطينية وإسرائيلية حول ١٩٤٨ واللاجئين، ووثائق دولية ذات صلة، إلى جانب أعمال عربية تعالج ذاكرة المكان والهوية. ولا تدعي الدراسة بناء corpus شامل لكل ما صدر عن الطرفين، لأن هدفها ليس القياس الكمي لتواتر المفردات، بل الكشف عن الأنماط الدلالية التي تتكرر في تعريف الحدث والمكان والحق والتهديد. ولهذا تُستخدم الأمثلة باعتبارها شواهد على آليات إنتاج المعنى، لا باعتبارها ممثلة بصورة إحصائية لكل اتجاه سياسي أو اجتماعي.

ويراعي التحليل مبدأ الفصل بين ثلاثة مستويات كثيراً ما تختلط في دراسة الصراعات: مستوى الواقعة التاريخية القابلة للتحقق بالمصادر؛ ومستوى تفسير الواقعة داخل السردية السياسية؛ ومستوى الوظيفة التي يؤديها هذا التفسير في بناء الهوية. فعندما تدرس الورقة مصطلح "النكبة" أو "الاستقلال"، لا تحل التسمية محل البحث التاريخي في أحداث ١٩٤٨، وإنما تصبح هي نفسها موضوعاً للتحليل: ماذا تُبرز، وماذا تدفع إلى الهامش، وما نوع الذات الجمعية التي تبنيها؟ وهذا التمييز يمنع الانزلاق إلى نسبية تعتبر جميع الادعاءات صحيحة لمجرد أنها جزء من رواية جماعية.

٥. الإطار النظري: من البناء الاجتماعي للواقع إلى سلطة الرواية

يوفر علم اجتماع المعرفة نقطة البداية الأساسية لفهم الرواية بوصفها عملية اجتماعية. فبرغر ولوكمان يريان أن الإنسان ينتج عالمه الاجتماعي، ثم تتحول المنتجات البشرية إلى مؤسسات ومعاني تبدو مستقلة عن الأفراد، قبل أن يعاد استدخالها من خلال التنشئة الاجتماعية (Berger & Luckmann, 1966).

ويمكن تطبيق هذه الفكرة على الروايات الوطنية. فالطفل لا يولد حاملاً لتفسيراً للنكبة أو الاستقلال؛ لكنه يتعلم تدريجياً من الأسرة والمدرسة والإعلام والرموز الوطنية أين تبدأ قصة جماعته ومن هم أبطالها وضحاياها، وما الأماكن التي تنتمي إليها، وما الأحداث التي ينبغي تذكرها.

ويتقاطع ذلك مع هالفاكس الذي يؤكد أن التذكر عملية اجتماعية؛ فالجماعة تمنح الفرد أطراً لتنظيم الماضي، ولذلك فإن الذاكرة الجمعية لا تعيد الماضي كما كان، بل تبنيه من منظور الحاضر (Halbwachs, 1992). وهذا ما يفسر قدرة النكبة أو المحرقة أو الحرب على الاحتفاظ بمعاني سياسية متجددة بعد أجيال من وقوعها.

أما فوكو، فيجعل العلاقة بين المعرفة والسلطة أكثر مركزية. فالخطاب ليس مجرد وسيلة محايدة لوصف الأشياء، بل يشارك في تحديد ما الذي يمكن اعتباره حقيقة، ومن يمتلك سلطة الحديث عنها (Foucault, 1972). ومن هنا ينبغي ألا يقتصر البحث على محتوى الرواية، بل أن يسأل كذلك عن المدرسة والأرشيف والخريطة والمتحف ووسائل الإعلام والمؤسسات التي تمنحها الاستمرار.

ويقدم بورديو مفهوم السلطة الرمزية لفهم القدرة على فرض تصنيف معين للعالم باعتباره مشروعاً وطبيعياً (Bourdieu, 1991). وتصبح التسمية في هذا السياق فعلاً سياسياً: وصف حدث بأنه "مقاومة" أو "إرهاب"، ومكان بأنه "مستوطنة" أو "حي"، وعام ١٩٤٨ بأنه "نكبة" أو "استقلال"، يحدد الإطار الذي سيجري الحكم على الظاهرة داخله.

وفي السياق الفلسطيني، تكتسب فكرة إدوارد سعيد حول "الإنز بالرواية" أهمية خاصة. فقد رأى سعيد أن النضال الفلسطيني يتضمن أيضاً نضالاً من أجل دخول التجربة الفلسطينية إلى المجال العام بوصفها تجربة قابلة للسرد والاعتراف (Said, 1984). والرواية هنا لا تصبح ترفاً ثقافياً؛ بل شكلاً من أشكال الوجود السياسي.

ويضيف بار-طال بعداً اجتماعياً نفسياً من خلال مفهوم "إثوس الصراع"، حيث تطور المجتمعات المنخرطة في نزاعات ممتدة منظومات من المعتقدات حول عدالة أهدافها وأمنها وصورتها الإيجابية والشعور بالضحية ونزع شرعية الخصم (Bar-Tal, 2007). وتصبح هذه المنظومات بمثابة عدسة تُفسر من خلالها الأحداث الجديدة.

ومن هذه المقاربات يمكن صياغة مسار إنتاج الرواية على النحو الآتي: الحدث ← التسمية ← السرد ← الذاكرة ← الهوية ← الشرعية ← الممارسة السياسية. وتعمل العلاقة بصورة دائرية؛ فالممارسة السياسية تنتج بدورها أحداثاً جديدة يجري إدخالها في الرواية، فتُعاد إنتاج الهوية والصراع.

٦. النكبة/الاستقلال: الحدث الواحد وذاكرتان قوميتان

يقدم عام ١٩٤٨ المثال الأكثر وضوحاً على تحول الحدث التاريخي الواحد إلى بنيتين متعارضتين من المعنى. ففي الذاكرة الفلسطينية أصبح العام مرتبطاً بـ "النكبة"؛ أي فقدان الوطن والتهجير واللجوء وتفكيك البنية الاجتماعية الفلسطينية. أما في الذاكرة الإسرائيلية القومية فهو "الاستقلال"؛ لحظة إقامة دولة إسرائيل وتحقيق السيادة اليهودية.

ولا يقتصر الاختلاف على الاسم. فكلمة "النكبة" تجعل التجربة الفلسطينية مركزاً للحدث، بينما تجعل "الاستقلال" تأسيس الدولة مركزاً له. وهكذا تعيد كل تسمية تحديد "ما هو الحدث" نفسه.

وتكتسب النكبة داخل الهوية الفلسطينية قوة خاصة لأنها تحولت من واقعة تاريخية إلى إطار زمني يميز بين "ما قبل" و"ما بعد". فالقرية والبيت والأرض والحياة الاجتماعية قبل ١٩٤٨ تستعاد في الذاكرة باعتبارها عالماً تعرض للانقطاع، بينما أصبح اللجوء والشتات ومحاولة استعادة الحضور السياسي عالم ما بعد النكبة.

وقد أوضح سعدي وأبو لغد (٢٠٠٧) أن ذاكرة النكبة لا تعمل باعتبارها ذكرى مغلقة، بل بوصفها عنصراً مستمراً في تشكيل التجربة الفلسطينية الحديثة. كما يؤكد مصالحة (٢٠١٢) مركزية النكبة في إنتاج الذاكرة والهوية والرواية الفلسطينية.

وتساعد الرموز على نقل هذه الذاكرة بين الأجيال. فمفتاح البيت، واسم القرية، وصورة الأسرة، ووثيقة الملكية، ليست أشياء مادية فقط؛ إنها أدوات لاستمرار العلاقة بين الإنسان والمكان. فاللاجئ الذي يحتفظ باسم قرية لم يعيش فيها أبناؤه أو أحفاده يحول المكان الغائب إلى حضور داخل اللغة والذاكرة.

وتشكل أسماء الأماكن إحدى أكثر هذه الأدوات وضوحاً. يبين مرقطن (٢٠٢٠) أن أسماء المدن والقرى الفلسطينية تحتزن تاريخاً طويلاً من الارتباط بالمكان، وأن عمليات تغيير الأسماء تدخل في علاقة مباشرة مع إنتاج هوية جغرافية جديدة. وبذلك لا تصبح الخريطة مجرد تمثيل للمكان، بل نصاً سياسياً يستطيع تحديد التاريخ الذي ستستدعيه الجغرافيا.

أما في السردية الإسرائيلية التقليدية، فإن عام ١٩٤٨ يدخل ضمن تسلسل مختلف: الاضطهاد اليهودي في أوروبا، والمحرق، والهجرة، والحركة الصهيونية، والحرب، ثم إعلان الدولة. ومن داخل هذا التسلسل يصبح الاستقلال تنويجاً لمشروع تقرير المصير واستعادة السيادة بعد تاريخ من الشتات والاضطهاد.

ولذلك فإن العام نفسه يؤدي وظيفتين هوياتيتين متناقضتين: حدث فقدان لدى جماعة وحدث تأسيس لدى أخرى.

غير أن الرواية الإسرائيلية لم تبق ثابتة تماماً. فقد ظهر منذ ثمانينيات القرن العشرين تيار من المؤرخين الإسرائيليين الذين أعادوا مراجعة مصادر حرب ١٩٤٨ وقضية اللاجئين، ومن بينهم بيني موريس وآفي شلايم وإيلان بابيه، رغم اختلاف استنتاجاتهم بصورة كبيرة. وأدى ذلك إلى ظهور نقاش داخلي بشأن علاقة الذاكرة القومية بالأرشفة التاريخية (Morris, 2004; Pappé, 2006).

وهذا يؤكد أن الذاكرة ليست فقط ساحة صراع بين جماعتين، بل مجال تنازع داخل الجماعة نفسها. والأهم أن الذاكرة الوطنية لا تتكون مما يجري تذكره فقط؛ بل مما يجري إهماله أو تهميشه أيضاً. فكل رواية تختار أحداثاً تمنحها مركزاً وتدفع غيرها إلى الهامش. لذلك يمكن القول إن الذاكرة الوطنية هي، في الوقت نفسه، نظام للتذكر ونظام للنسيان.

وتكشف ثنائية النكبة/الاستقلال في النهاية عن واحدة من أهم آليات الرواية: الاسم يحدد نقطة النظر. فعندما تكون "النكبة" هي الاسم، يصبح السؤال: ماذا حدث للفلسطينيين؟ وعندما يكون "الاستقلال" هو الاسم، يصبح السؤال: كيف نجح اليهود في إقامة دولتهم؟ ومن ثم فإن التسمية لا تسبق الإجابة فحسب؛ بل تسهم في صياغة السؤال نفسه.

٧. العودة: بين عدالة الاسترداد وقلق الديموغرافيا

إذا كانت النكبة تمثل خروج الفلسطيني من المكان، فإن العودة تمثل نقيضها السردي. لذلك اكتسبت "العودة" مكانة تتجاوز كونها مطلباً سياسياً؛ فهي تربط بين الذاكرة والحق والهوية.

وقد احتل قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٩٤ لعام ١٩٤٨ موقعاً مركزياً في النقاش المتعلق باللاجئين، بما تضمنه من معالجة للعودة والتعويض (United Nations General Assembly, 1948). غير أن الموقع الفلسطيني للعودة لا يمكن تفسيره من خلال القانون وحده؛ فالعودة تتضمن معنى استعادة العلاقة بالمكان الذي انقطعت بفعل النكبة.

ومن هنا يمكن تلخيص بنيتها في الرواية الفلسطينية على النحو الآتي: المكان: الاقتلاع: اللجوء: الذاكرة: العودة: العدالة.

فاللاجئ لا يعيش فقط في مكان جديد؛ إنه يحمل علاقة سردية بمكان آخر. وقد حافظت الروابط القروية والعائلية في المخيمات والشتات على أسماء القرى والمدن، وساهم الأدب والذاكرة الشفوية والمؤسسات الوطنية في نقل العلاقة بالمكان إلى أجيال لم تعيش التجربة الأصلية.

ولهذا يتحول المفتاح الفلسطيني، على سبيل المثال، من أداة وظيفية إلى رمز: لم تعد قيمته في فتح باب ربما لم يعد قائماً، وإنما في إثبات أن بيتاً كان موجوداً وأن علاقة ما بالمكان لم تنته في الذاكرة.

لكن مفهوم العودة ينتقل داخل الخطاب الإسرائيلي السائد إلى حقل دلالي مختلف. فبدل أن تبدأ القصة من اللاجئ وفقدانه للمكان، تبدأ غالباً من الدولة ومن السؤال عن أثر عودة أعداد كبيرة من الفلسطينيين في تركيبها الديموغرافية وطبيعتها اليهودية.

ويتحول اللاجئ في هذه العملية من صاحب حق داخل الرواية الفلسطينية إلى مشكلة ديموغرافية داخل الرواية الإسرائيلية. هذه النقطة مهمة لأنها تكشف كيف يغير الخطاب الموقع الأخلاقي للفاعل نفسه. فحين توضع العودة داخل حقل العدالة، يصبح رفضها استمراراً للظلم؛ وحين توضع داخل حقل بقاء الدولة وهويتها، يصبح قبولها تهديداً.

وتزداد المفارقة عمقاً لأن فكرة "العودة" نفسها تحتل موقعاً تأسيسياً في الصهيونية، التي قدمت الهجرة اليهودية إلى فلسطين بوصفها عودة إلى وطن تاريخي، كما كرست إسرائيل "قانون العودة" عام ١٩٥٠.

وبذلك يستخدم الطرفان المفهوم ذاته، لكنهما يختلفان على صاحب الحق فيه والزمن الذي يمنحه شرعيته. فالرواية الصهيونية تمد علاقة اليهودي بالمكان إلى التاريخ القديم، بينما يركز اللاجئ الفلسطيني على مكان غادره هو أو أبوه أو جده في القرن العشرين. ومن هنا يصبح الصراع على العودة امتداداً للصراع على الزمن الذي ينتج الحق.

وهذا يفسر لماذا لا يمكن معالجة قضية اللاجئين بوصفها معادلة عددية فقط. فكل حل يحمل معنى هوياتياً: الفلسطيني يقرأه من خلال الاعتراف بالنكبة والحق، بينما يقرأه الإسرائيلي من خلال استمرارية شكل الدولة وهويتها. وهكذا تبين العودة أن القضايا الأكثر صعوبة في النزاعات ليست بالضرورة تلك التي تفتقر إلى الحلول التقنية، بل تلك التي يؤدي الحل فيها إلى إعادة تعريف هوية الجماعة وروايتها عن نفسها.

٨. الأرض والوطن والأصالة: الصراع على المكان والزمن

تحتل الأرض موقعاً مركزياً في الخطابين لأنها ليست مجرد مساحة مادية، بل مجال تلتقي فيه الملكية بالذاكرة والدين والسيادة والانتماء.

في التجربة الفلسطينية، ترتبط الأرض بالقرية والبيت والزراعة والعائلة والمقبرة وأسماء الأمكنة. ولهذا فإن خسارتها لا تمثل فقدان أصل اقتصادي فقط، بل اقتلاعاً من شبكة من العلاقات الاجتماعية.

وتحضر شجرة الزيتون، على سبيل المثال، بوصفها رمزاً يتجاوز وظيفتها الزراعية؛ فهي تشير إلى الجذور والاستمرارية والارتباط طويل الأمد بالمكان. وبصورة مماثلة، أصبح يوم الأرض منذ أحداث ١٩٧٦ رمزاً وطنياً يتجاوز سياقه المحلي، دالاً على العلاقة بين الأرض والهوية.

ويمثل اسم المكان أحد أهم عناصر هذه العلاقة. فحين يستمر الفلسطيني في استخدام اسم قرية مهجرة، فإن الاسم يحافظ على علاقة بين الذاكرة والجغرافيا. وعندما يستبدل الاسم، تتغير الإحالة التاريخية التي يحملها المكان. ولهذا يصبح التغيير اللغوي جزءاً من إعادة إنتاج الفضاء رمزياً (مرقطن، ٢٠٢٠).

أما في الفكر الصهيوني، فالأرض لا تظهر بدورها باعتبارها موقعاً اختير لأسباب عملية فقط؛ إذ استندت الحركة الصهيونية إلى العلاقة التاريخية والدينية اليهودية بفلسطين/أرض إسرائيل، وربطت بينها وبين فكرة العودة من الشتات وإعادة بناء السيادة.

وقد ساهم إحياء اللغة العبرية الحديثة واستعادة أسماء تاريخية وتوراتية في إقامة صلة رمزية بين المجتمع الإسرائيلي الحديث والجغرافيا، بحيث أصبحت اللغة نفسها إحدى أدوات "استعادة" المكان داخل السردية القومية.

وتساعد فكرة بندكت أندرسون عن "الجماعات المتخيلة" في فهم هذه العملية. فالأمة ليست جماعة يعرف كل أفرادها بعضهم بعضاً، وإنما مجتمع يتخيل أفرادها أنهم ينتمون إلى تاريخ ومصير واحد من خلال اللغة والمؤسسات والرموز (Anderson, 2006). ولا يعني "التخيل" أن الانتماء زائف؛ بل يعني أن الأمة تحتاج إلى آليات ثقافية تجعل ملايين الأفراد يشعرون بأنهم جزء من "نحن" واحدة.

وتبرز هذه العملية أيضاً في التجربة الفلسطينية في الشتات. فقد استطاع أفراد لم يولدوا في فلسطين أن يحتفظوا بانتماء وطني إليها من خلال الأسرة والذاكرة والتعليم والأدب والرموز. وبذلك يتحول الوطن إلى مكان مادي من جهة، وفضاء للذاكرة والتخيل الجمعي من جهة ثانية.

وهنا يبرز مفهوم الأصالة أو السكان الأصليين. وقد تزايد استخدام مفهوم indigeneity في النقاش بشأن فلسطين وإسرائيل، إلا أن استخدامه يحتاج إلى الحذر. فالأصالة في الدراسات الحديثة ليست مجرد سؤال: "من وصل أولاً؟"، بل ترتبط بالاستمرارية التاريخية والعلاقة بالأرض والهوية الجماعية والتجربة الاستعمارية وموقع الجماعة في بنية القوة.

تستند الرواية الفلسطينية إلى وجود واستمرارية مجتمع فلسطيني في المدن والقرى قبل المشروع الصهيوني الحديث، وإلى وجود شبكة اجتماعية واقتصادية وثقافية ذات طابع محلي. ويبين رشيد الخالدي أن الهوية الفلسطينية الحديثة تطورت من دوائر متعددة من الانتماء المحلي والعربي والعثماني والديني، ولا يمكن اختزالها في رد فعل متأخر على الصهيونية (Khalidi, 1997).

في المقابل، تستند الرواية الصهيونية-الإسرائيلية إلى الوجود اليهودي التاريخي القديم والعلاقة الدينية والثقافية المستمرة بفلسطين خلال الشتات. وهنا يتكشف عنصر جوهري في الصراع: كل رواية تختار زمناً مختلفاً لإثبات الأصالة.

إذا بدأت القصة في أواخر القرن التاسع عشر، يصبح وجود مجتمع عربي فلسطيني مقابل هجرة صهيونية منظمة نقطة مركزية. وإذا بدأت القصة من التاريخ القديم، يمكن أن تظهر الصهيونية بوصفها عودة جماعة إلى وطنها التاريخي.

لذلك فإن سؤال "من كان أولاً؟" قد يكون سؤالاً مضللاً من الناحية السوسيولوجية؛ إذ يخلط بين الوجود القديم والاستمرارية السكانية والحقوق السياسية الحديثة. وما يهم الدراسة ليس حسم الأنساب التاريخية، بل تحليل كيفية استخدام الماضي لإنتاج شرعية الحاضر. ومن هنا يمكن القول إن الصراع لا يدور فقط على من يملك الأرض، بل على من يملك الزمن الذي ينبغي أن تقرأ الأرض من خلاله.

٩. الأمن والضحية: إنتاج الشرعية الأخلاقية

ينقل مفهوم الأمن والضحية الصراع من سؤال الانتماء إلى سؤال الشرعية الأخلاقية. فمن يمتلك موقع الضحية يصبح أكثر قدرة على المطالبة بالحماية والاعتراف؛ ومن يستطيع تعريف الآخر بوصفه تهديداً يصبح أكثر قدرة على إضفاء الشرعية على استخدام القوة.

يحتل الأمن موقعاً مركزياً في الهوية السياسية الإسرائيلية، ولا يمكن فهمه بمعزل عن التاريخ اليهودي الحديث، ولا سيما الاضطهاد الأوروبي والمذابح والمحركة النازية. فقد عززت هذه التجارب تصوراً يربط بين الدولة والسيادة والقدرة على الحماية، بحيث لا تصبح الدولة تعبيراً عن القومية فقط، بل ضماناً ضد العودة إلى حالة انعدام القدرة على الدفاع عن الذات.

ويفسر مفهوم "إثوس الصراع" لدى بار-تال الكيفية التي تتحول بها هذه المخاوف إلى بنية جمعية مستقرة. فالمجتمعات المنخرطة في نزاعات طويلة تطور معتقدات عن عدالة أهدافها وأمنها وصورة ذاتها والشعور بأنها ضحية وعن طبيعة الخصم (Bar-Tal, 2007).

وهكذا يصبح الأمن إطاراً لتفسير الواقع لا مجرد مجموعة من السياسات. فعندما توضع ممارسة سياسية أو عسكرية تحت عنوان الأمن، تتغير بنيتها الأخلاقية. الحاجز يصبح "إجراءً أمنياً"، والجدار يصبح وسيلة للوقاية، والعملية العسكرية تصبح دفاعاً، والاعتقال يمكن أن يقدم باعتباره وقائياً.

والقوة هنا لا تكمن في المفردة وحدها، بل في تحويل السؤال من: "هل هذا الفعل عادل؟" إلى: "هل يمكن المجازفة بأمن المجتمع بعدم القيام به؟".

لكن الفلسطيني يدخل إلى مفهوم الأمن من موقع مختلف. فالحاجز الذي يمكن أن يفهم إسرائيلياً باعتباره وقاية من هجوم يُختبر فلسطينياً باعتباره تنظيمياً مباشراً للحركة والوقت والقدرة على الوصول إلى العمل أو الجامعة أو العلاج. ومن هنا ينتج سؤال مضاد: أمن من، ومن أي تهديد، وعلى حساب أمن من؟ ويكشف هذا السؤال الفرق بين أمن الدولة والأمن الإنساني. فقد تحقق الدولة مستوى من الحماية لمواطنيها بواسطة ممارسة تنتج في الوقت نفسه انعدام الأمن أو الحرية لدى مجتمع آخر.

وتظهر هنا إمكانية تشكل دائرة لإعادة إنتاج الصراع: الخوف: إجراء أمني: شعور الطرف الآخر بالسيطرة والتهديد: مقاومة أو عنف: خوف أكبر: إجراءات أمنية أشد. ولا يعني هذا النموذج مساواة أسباب العنف أو المسؤولية، وإنما تفسير الطريقة التي يمكن أن تساهم بها المخاوف والممارسات المتبادلة في إعادة إنتاج البنية الاجتماعية للصراع. ويصل مفهوم الأمن إلى أعماق مستوياته حين يلتقي بمفهوم الضحية. تحتل ذاكرة الاضطهاد والمحرق موقعا أساسياً في الهوية اليهودية-الإسرائيلية، وتظهر في التعليم والمتاحف والطقوس العامة والثقافة السياسية. وهي ذاكرة تاريخية حقيقية لا يمكن فهم المجتمع الإسرائيلي من دونها.

وفي المقابل، تتأسس ذاكرة الضحية الفلسطينية على النكبة والتهجير واللجوء والاحتلال والاستيطان والحروب وفقدان المكان. ويتحول اللاجئ والأسير والقرية المهجرة والبيت المدمر إلى رموز تستطيع اختزال تجربة أوسع من الفرد. وهكذا تقوم الروايتان بتحويل المعاناة الفردية إلى معنى جمعي.

غير أن المشكلة تظهر عندما يتحول موقع الضحية من وصف لتجربة معينة إلى هوية أخلاقية ثابتة. فالجماعة التي ترى نفسها دائماً في موقع الضحية يمكن أن تجد صعوبة في إدراك اللحظات التي تمتلك فيها القوة أو تسبب معاناة للآخر. ولا يعني ذلك أن الضحية والفاعل متساويان أو أن علاقات القوة غير ذات أهمية. بل يعني أن كون جماعة ضحية في تجربة تاريخية معينة لا يمنح أفعالها في كل السياقات حصانة أخلاقية تلقائية.

وتشكل المنافسة على الاعتراف بالضحية أحد أعماق مظاهر الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي. فالاعتراف بمعاناة الآخر قد يفهم داخل الروايات المغلقة باعتباره تهديداً لعدالة الذات. فقد يخشى إسرائيلي من أن الاعتراف بالنكبة يعني نفي شرعية قيام إسرائيل، بينما قد يخشى فلسطيني من أن الاعتراف بعمق الصدمة التاريخية اليهودية يعني قبول استخدام هذه الصدمة لتبرير الاحتلال أو إنكار الحقوق الفلسطينية.

ومن هنا تبدو الحاجة إلى الفصل بين أمرين: الاعتراف بالمعاناة، وتبرير السياسة. فالاعتراف بتاريخ الاضطهاد اليهودي لا يستلزم قبول كل ممارسة إسرائيلية، كما أن الاعتراف بالنكبة لا يعني إنكار الارتباط اليهودي التاريخي والديني بفلسطين.

وقد أعادت أحداث السابع من أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٢٣ والحرب اللاحقة على قطاع غزة إظهار هذه البنية بحدّة. فقد احتل الأمن والصدمة والتهديد موقعاً مركزياً في الرواية الإسرائيلية، بينما احتلت الحرب والدمار والضحايا والتهجير والحصار موقعاً مركزياً في الخطاب الفلسطيني والعربي وأجزاء واسعة من الخطاب الدولي النقدي.

وعاد السؤال إلى نقطة البداية: متى تبدأ القصة؟ فمن يبدأها في السابع من أكتوبر ينتج بنية سببية مختلفة عمن يبدأها بالحصار، أو باحتلال عام ١٩٦٧، أو بالنكبة عام ١٩٤٨. ولا يؤدي السياق إلى إلغاء المسؤولية القانونية أو الأخلاقية عن أفعال محددة؛ لكنه يكشف أن اختيار نقطة البداية هو أحد أهم مصادر قوة الرواية السياسية.

١٠. مؤسسات إنتاج الرواية وعدم تكافؤ القوة

لا يمكن للرواية أن تتحول إلى ذاكرة جمعية من دون مؤسسات تنقلها وتكررها. فالأسرة والمدرسة والجامعة والمتاحف والأرشيفات والإعلام والأدب والخرائط والأعياد الوطنية والمنصات الرقمية كلها مؤسسات لإنتاج المعنى. تؤدي المدرسة دوراً مركزياً لأنها تقدم الرواية في صورة معرفة منظمة وممنهجة. أما الخريطة فتحدد أسماء الأماكن وحدودها وعلاقتها بالتاريخ، ويحدد المتحف ما يستحق العرض والتذكر، بينما يحفظ الأرشيف بعض الوقائع ويجعلها قابلة للاستعادة والبحث.

ولأن الدولة تمتلك القدرة على تنظيم هذه المؤسسات، فإنها تتمتع بتفوق واضح في مجال إنتاج الذاكرة الرسمية. وقد امتلكت إسرائيل منذ تأسيسها مؤسسات الدولة ومناهجها وأجهزتها الثقافية والدبلوماسية، في حين أنتج الفلسطينيون جانباً واسعاً من ذاكرتهم في ظل اللجوء والشتات والاحتلال والتجزئة. وهذا يجعل شروط إنتاج الروايتين مختلفة.

فالرواية الفلسطينية اعتمدت بصورة كبيرة على الذاكرة الشفوية، والأدب، والعلاقات العائلية والقروية، والمؤسسات الوطنية والمجتمعية والأرشيفات المتفرقة. ويفسر ذلك أهمية الأدب الفلسطيني. فأعمال غسان كنفاني ومحمود درويش وغيرهما لم تكن أعمالاً جمالية فقط، بل ساهمت في حفظ المكان وتجربة اللجوء وتحويلها إلى ذاكرة ثقافية مشتركة.

كما أتاحت الثورة الرقمية إمكانات جديدة للرواية؛ فالهاتف المحمول ومنصات التواصل سمحت للأفراد بتوثيق الحدث ونشره مباشرة إلى جمهور عالمي، الأمر الذي خفف جزئياً من احتكار المؤسسات التقليدية لعملية تمثيل الواقع.

لكن هذا لا يلغي عدم التكافؤ؛ إذ تظل الدولة أكثر قدرة على إنتاج الأرشيف والمناهج والسياسة الرسمية والوصول الدبلوماسي. ومن هنا تظهر صحة فكرة بورديو: الفاعلون لا يتساوون في قدرتهم على جعل تصنيفاتهم للعالم تصنيفات

معتزلاً بها. وبذلك لا يتعلق الصراع على الرواية بمن يمتلك "قصة أفضل" فحسب، بل بمن يمتلك المؤسسات القدرة على جعل قصته معرفة عامة.

كما ينبغي التمييز بين امتلاك قدرة مؤسسية على نشر الرواية وبين نجاحها النهائي في احتكار المعنى. فالدولة تستطيع تثبيت أسماء في الخرائط والمناهج وإقامة متاحف وطقوس رسمية، لكنها لا تستطيع إلغاء الذاكرة الاجتماعية بصورة كاملة. وفي المقابل، قد تفتقر جماعة إلى السيادة السياسية لكنها تحافظ على سرديتها عبر الأسرة والأدب والطقوس واللغة والذاكرة الرقمية. وتفيد هذه الملاحظة في تفسير استمرار أسماء القرى الفلسطينية المهجرة ومفردات النكبة والعودة في أجيال لم تعش الحدث الأصلي، كما تفسر ظهور أصوات إسرائيلية نقدية تعيد فتح ملفات التاريخ الرسمي. ومن ثم فإن الحقل السردى لا يساوي المجال الرسمي وحده؛ بل هو مجال تنازع مستمر بين الذاكرة المهيمنة والذاكرات المضادة.

١١. مناقشة النتائج

تكشف المحاور السابقة أن الرواية ليست انعكاساً خارجياً للصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، بل عنصراً من عناصر بنيته. فالهوية لا تتشكل أولاً ثم تبحث عن رواية تناسبها؛ بل تساهم الرواية والذاكرة واللغة في إنتاج الهوية نفسها. ويظهر ذلك أولاً في قوة التسمية. فمفهوم النكبة/الاستقلال لا يقدم مجرد اسمين، بل يبني منظورين تاريخيين. وكل اسم يحدد الفاعل الذي ينبغي وضعه في مركز الحدث.

وثانياً، يتضح أن الزمن مصدر للشرعية. فالروايات لا تختلف فقط في الوقائع التي تختارها، وإنما في التاريخ الذي تحدده كنقطة بداية. وكل بداية تنتج سلسلة مختلفة من الأسباب والحقوق والمسؤوليات.

وثالثاً، يتضح أن المكان اجتماعي بقدر ما هو جغرافي. فالقرية والوطن والخريطة واسم المدينة تكتسب معناها من الذاكرة والعلاقات والمؤسسات. ولذلك يصبح الصراع على أسماء الأماكن صراعاً على التاريخ الذي تحمله الجغرافيا.

ورابعاً، تكشف العودة عن العلاقة الوثيقة بين الذاكرة والسياسة. فما يبدأ كذكرى لفقدان البيت يتحول إلى مطالبة قانونية ووطنية، وما يبدأ كخوف من تحول ديموغرافي يتحول إلى موقف سياسي رافض للعودة.

وخامساً، تؤدي هوية الضحية وظيفية أساسية في إنتاج الشرعية. فمعاناة الجماعة تمنحها رأسمالاً أخلاقياً، لكن استمرار النظر إلى الذات بوصفها الضحية الوحيدة يمكن أن يمنع الاعتراف بمعاناة الآخر.

وسادساً، تشير الدراسة إلى أن المقارنة بين الخطابين يجب ألا تتحول إلى تناظر زائف. فالطرفان قد يستخدمان الذاكرة والهوية والتسمية، لكنهما لا يمتلكان الموارد المؤسسية نفسها ولا الموقع نفسه في علاقات القوة.

وهنا تتضح العلاقة بين القوة المادية والقوة الرمزية. فامتلاك الدولة والجيش والمؤسسات لا يعني امتلاك السيطرة المطلقة على الرواية، لكنه يمنح قدرة أكبر على إنتاج معرفة رسمية وتعميمها. وفي المقابل يستطيع الطرف الأضعف مادياً أن ينتج رواية مضادة بواسطة الذاكرة والأدب والتاريخ الشفوي والوسائط الرقمية.

وبذلك يمكن تلخيص عملية إنتاج المعنى في الصراع في السلسلة التالية: انتقاء الحدث: تسميته: تحديد نقطة البداية: توزيع الأدوار بين الذات والآخر: إدماجه في الذاكرة: تحويله إلى هوية: استخدام الهوية لإنتاج شرعية سياسية.

وهذه العملية تساعد في تفسير صعوبة تسوية النزاع؛ فالمفاوضات لا تدور بين مصالح مادية فقط، وإنما بين هويات تخشى أن يؤدي التنازل السياسي إلى الاعتراف بأن رواية الجماعة عن نفسها خاطئة أو غير مشروعة. ولذلك يستطيع المفاوضون نظرياً الاتفاق على ترتيبات حدودية أو أمنية، لكن الاتفاق على معنى النكبة أو العودة أو الوطن أو الضحية أشد صعوبة.

ويظهر هنا أن السلام السياسي والمصالحة التاريخية ليسا شيئاً واحداً؛ فقد يتم التوصل إلى ترتيبات سياسية فيما يبقى الصراع على الماضي والهوية مفتوحاً.

وتكشف هذه النتيجة عن بعد مهم في علم اجتماع الصراع: إن الجماعات لا تدخل المفاوضات وهي تحمل مطالب فحسب، بل تحمل أيضاً تصورات مسبقة عما تعنيه العدالة وما الذي يشكل تنازلاً مشروعاً أو خيانة للذاكرة. لذلك قد يكون المقترح نفسه مقبولاً تقنياً ومرفوضاً هوياتياً. فالتعويض، مثلاً، قد يُقرأ أحياناً كحل عملي لمشكلة لاجئ، لكنه قد يُرفض إذا فهم بوصفه بديلاً عن الاعتراف بالاقتلاع أو بالحق؛ كما يمكن لترتيب أمني أن يبدو ضرورياً لطرف ومظهراً لاستمرار السيطرة للطرف الآخر. ومن هنا فإن تحليل الرواية لا يضاف إلى التحليل السياسي من الخارج، بل يساعد على تفسير الحدود الاجتماعية لما تستطيع المؤسسات السياسية التفاوض عليه أصلاً.

١٢. النتائج

١. الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي صراع على إنتاج المعنى إلى جانب كونه صراعاً على الأرض والسيادة والقوة.
٢. لا تعكس الرواية الهوية فقط، بل تساهم في إنتاجها ونقلها بين الأجيال.
٣. تمثل ثنائية النكبة/الاستقلال نموذجاً واضحاً على قدرة التسمية على تغيير مركز الحدث التاريخي وإعادة توزيع مواقع الفاعل والضحية.
٤. ترتبط العودة في الرواية الفلسطينية بالذاكرة والحق والعدالة، بينما تدخل في الخطاب الإسرائيلي السائد ضمن قضايا الديموغرافيا واستمرارية الطابع اليهودي للدولة.

٥. الأرض ليست مساحة مادية فحسب، بل فضاء للذاكرة والانتماء؛ ولذلك تمثل أسماء الأماكن والخرائط إحدى ساحات السلطة الرمزية.
٦. يقوم الصراع على الأصالة جزئياً على اختلاف الأزمنة المرجعية؛ إذ يستخدم كل خطاب ماضياً مختلفاً لإنتاج شرعية العلاقة بالمكان.
٧. يحتل الأمن موقعاً تأسيسياً في الخطاب الإسرائيلي، بينما يعاد تفسير كثير من الممارسات الأمنية داخل التجربة الفلسطينية بوصفها أدوات للسيطرة والاحتلال.
٨. تشكل هوية الضحية مورداً أخلاقياً في الروايتين، لكنها قد تسهم في إغلاق المجال أمام الاعتراف بمعاناة الآخر عندما تتحول إلى هوية حصرية.
٩. تؤدي مؤسسات التعليم والإعلام والأرشيف والمتاحف والخرائط دوراً مركزياً في تحويل الرواية إلى معرفة جمعية.
١٠. لا تتساوى الروايتان في شروط الإنتاج؛ إذ يرتبط امتلاك مؤسسات الدولة بقدرة أكبر على تثبيت التسميات والذاكرة الرسمية.
١١. لا يعني تحليل الخطابين بأدوات منهجية متماثلة المساواة بينهما في القوة أو المسؤولية السياسية والتاريخية.
١٢. يمثل الصراع على الرواية في مستواه الأعمق صراعاً على سلطة تعريف الواقع: من يحدد الاسم، ونقطة البداية، وصاحب الحق، والضحية، والتهديد.

١٣. التوصيات

- توصي الدراسة بتوسيع حضور علم اجتماع المعرفة ودراسات الذاكرة وتحليل الخطاب في البحث العربي المتعلق بالقضية الفلسطينية، وعدم حصرها في الدراسات السياسية والقانونية.
- كما توصي بزيادة الاهتمام بالتاريخ الشفوي والأرشيف الفلسطيني وأسماء الأماكن والخرائط والرموز الثقافية، باعتبارها مصادر لفهم إنتاج الهوية وليس مجرد مواد مساعدة للمؤرخ.
- ومن الضروري تطوير دراسات مقارنة للمناهج الفلسطينية والإسرائيلية والخطابات الإعلامية والمتاحف والنصب التذكارية، بما يسمح بالكشف عن الكيفية التي تتعلم بها الأجيال الجديدة رواية الصراع.
- وتوصي الدراسة كذلك بعدم التعامل مع المجتمع الإسرائيلي أو الفلسطيني بوصف كل منهما كتلة خطابية واحدة، بل دراسة الصراعات الداخلية على الذاكرة، بما في ذلك الروايات الإسرائيلية النقدية والروايات الفلسطينية المتعددة.

كما ينبغي الحذر من التناظر الزائف؛ فدراسة الآليات السردية المشتركة لا تلغي اختلاف مواقع القوة، ولا ينبغي أن تتحول المقاربة المقارنة إلى مساواة آلية بين الاحتلال والمقاومة أو الدولة والسكان الواقعين تحت سلطتها. وأخيراً، فإن أي مقاربة جادة لتسوية طويلة المدى تحتاج إلى الاعتراف بأن الاتفاق السياسي على الحدود والأمن لن يكون كافياً وحده؛ إذ تبقى هناك حاجة إلى التعامل مع قضايا الذاكرة والاعتراف والتاريخ، من دون أن يعني ذلك بناء رواية مصطنعة تلغي الخلافات أو تطمس الحقوق.

١٤. الخاتمة

انطلقت الدراسة من سؤال: كيف يتحول الصراع على الرواية إلى صراع على الهوية؟ وقد أظهر التحليل أن الإجابة تكمن في الدور الذي تؤديه الرواية في تنظيم العلاقة بين الماضي والحاضر والمكان والحق.

فالنكبة والاستقلال ليسا اسمين مختلفين لواقعة واحدة فحسب؛ إنهما طريقتان لبناء التاريخ. والعودة ليست مجرد حركة سكانية محتملة؛ إنها في خطاب استعادة للعدالة وفي آخر تهديد لهوية الدولة. والأرض ليست مساحة جغرافية خالية من المعنى، بل مكاناً تترسب فيه الذاكرة والدين والعائلة والسيادة. والأمن ليس مصطلحاً تقنياً محضاً، بل إطاراً تنتج من خلاله الشرعية السياسية، والضحية ليست مجرد من أصابتها المعاناة، بل موقعاً أخلاقياً يؤثر في فهم الجماعة لذاتها وللآخر.

وبذلك تصبح الرواية أحد أهم الميادين التي يلتقي فيها علم اجتماع المعرفة بالسياسة. فالرواية هي التي تحدد للإنسان ماذا يتذكر، والاسم الذي يستخدمه، والزمن الذي تبدأ منه قصته، والمكان الذي يعتبره وطناً، والمخاطر التي يخشاها، والحقوق التي يراها بديهية.

ومن هنا فإن الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي لا يدور فقط حول السؤال: من يملك الأرض؟ بل حول سؤال أكثر عمقاً: من يملك سلطة تعريف الأرض وتاريخها وذاكرتها؟

ولا يعني هذا أن الواقع نفسه مجرد خطاب. فالتهجير والاحتلال والاستيطان والحرب والضحايا حقائق مادية يمكن البحث فيها وتوثيقها. لكن الأفراد والجماعات لا يتعاملون مع الوقائع خارج أنظمة المعنى؛ فهم يضعونها داخل قصص تجعل بعض الممارسات عادلة، وبعضها مهددة، وبعض الأمكنة وطناً، وبعض الأحداث تأسيسية للهوية.

ومن هنا لا تتمثل مهمة علم اجتماع المعرفة في جعل الحقيقة نسبية، وإنما في الكشف عن الطريقة التي تتحول بها الوقائع والتفسيرات إلى "واقع اجتماعي" يمتلك قوة التأثير في السلوك السياسي.

كما تكشف الدراسة أن الاعتراف بوجود روايتين لا يعني افتراض تساويهما في القدرة؛ فالرواية المدعومة بمؤسسات الدولة والمدرسة والأرشيف والخريطة والدبلوماسية تمتلك شروطاً مختلفة عن رواية تكونت طويلاً في اللجوء والشتات والاحتلال. ولذلك فإن الصراع على الرواية هو كذلك صراع على وسائل إنتاج الرواية.

لكن الاختلاف في القوة لا يلغي قدرة الذاكرة المضادة على البقاء. فقد استطاع الفلسطينيون الحفاظ على أسماء القرى وذاكرات المكان والهوية الوطنية عبر أجيال، مثلما ظهرت داخل إسرائيل نفسها قراءات نقدية للرواية القومية التقليدية. وهذا يؤكد أن الذاكرة لا يمكن اختزالها بالكامل في إرادة الدولة.

إن التحدي الأعمق في الحالة الفلسطينية-الإسرائيلية لا يتمثل في اختراع رواية وسطية تقول إن الجميع كانوا على حق بالقدر نفسه؛ فهذا النوع من التسوية السردية لا يحترم التاريخ ولا علاقات القوة.

التحدي الحقيقي هو إنشاء فضاء يستطيع فيه الاعتراف بمعاناة الآخر ألا يتحول إلى نفي لمعاناة الذات، وأن يكون الاعتراف بالتاريخ ممكناً دون استخدامه لإلغاء الحقوق الراهنة.

ولهذا فإن مستقبل الصراع لا يتحدد فقط على الخرائط أو طاولات المفاوضات؛ بل أيضاً في المدارس والمتاحف والأرشيفات وأسماء الأماكن والكتب والصور والكلمات التي ستستخدمها الأجيال المقبلة لوصف ما حدث.

وفي هذا المستوى تحديداً يصبح الصراع على الرواية صراعاً على الهوية؛ لأن الجماعة، عندما تدافع عن روايتها، لا تدافع عن قصة عن الماضي فقط، بل عن إجاباتها عن الأسئلة المؤسسة لوجودها السياسي: من نحن؟ ماذا حدث لنا؟ أين وطننا؟ من هو الآخر؟ وما الذي يحق لنا المطالبة به؟

المراجع

أولاً: المراجع العربية

زريق، ق. (١٩٤٨). معنى النكبة. بيروت: دار العلم للملايين.

سعيد، إ. و. (٢٠٠٤). الثقافة والمقاومة: حوارات مع ديفيد بارساميان. بيروت: دار الآداب.

سوكاح، ز. (٢٠٠٨). الهوية بين الكتابة التاريخية والذاكرة الجمعية: نحو نموذج ذاكراتي فلسطيني. رؤى تربوية، (٢٧)، ٨٤-٨١.

كنفاني، غ. (د.ت.). الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨. بيروت: مؤسسة غسان كنفاني الثقافية.

كنفاني، غ. (د.ت.). في الأدب الصهيوني. بيروت: مؤسسة غسان كنفاني الثقافية.

كوثراني، و. (٢٠٢٠). الذاكرة من منظور مؤرخ. تبين للدراسات الفلسفية والنظريات النقدية، ٩ (٣٣).
مرقطن، م. (٢٠٢٠). ذاكرة المكان: أسماء المدن والقرى الفلسطينية ما بين الاستمرارية التاريخية والطمس
الصهيوني. تبين للدراسات الفلسفية والنظريات النقدية، ٩ (٣٣)، ٣١-٥٤.

ثانياً: الوثائق الدولية

United Nations. (2007). United Nations Declaration on the Rights of Indigenous Peoples.
New York, NY: United Nations.

United Nations General Assembly. (1948). Palestine—Progress report of the United
Nations Mediator (Resolution 194 [III]).

ثالثاً: المراجع الأجنبية

Anderson, B. (2006). Imagined communities: Reflections on the origin and spread of
nationalism (Rev. ed.). London: Verso.

Bar-Tal, D. (2007). Sociopsychological foundations of intractable conflicts. American
Behavioral Scientist, 50(11), 1430–1453.

Berger, P. L., & Luckmann, T. (1966). The social construction of reality: A treatise in the
sociology of knowledge. New York, NY: Anchor Books.

Bourdieu, P. (1991). Language and symbolic power. Cambridge, MA: Harvard University
Press.

Fairclough, N. (1995). Critical discourse analysis: The critical study of language. London:
Longman.

Foucault, M. (1972). The archaeology of knowledge and the discourse on language. New
York, NY: Pantheon Books.

Halbwachs, M. (1992). On collective memory. Chicago, IL: University of Chicago Press.

Khalidi, R. (1997). Palestinian identity: The construction of modern national
consciousness. New York, NY: Columbia University Press.

- Masalha, N. (2012). The Palestine Nakba: Decolonising history, narrating the subaltern, reclaiming memory. London: Zed Books.
- Morris, B. (2004). The birth of the Palestinian refugee problem revisited. Cambridge: Cambridge University Press.
- Pappé, I. (2006). The ethnic cleansing of Palestine. Oxford: Oneworld.
- Rouhana, N. N., & Bar-Tal, D. (1998). Psychological dynamics of intractable ethnonational conflicts: The Israeli–Palestinian case. *American Psychologist*, 53(7), 761–770.
- Sa'di, A. H., & Abu-Lughod, L. (Eds.). (2007). Nakba: Palestine, 1948, and the claims of memory. New York, NY: Columbia University Press.
- Said, E. W. (1979). The question of Palestine. New York, NY: Times Books.
- Said, E. W. (1984). Permission to narrate. *Journal of Palestine Studies*, 13(3), 27–48.
<https://doi.org/10.2307/2536688>
- van Dijk, T. A. (1993). Principles of critical discourse analysis. *Discourse & Society*, 4(2), 249–283.

مجلة الاتحاد العربي
للنشر العلمي